الألم واليأس
في شعر ابن الرومي

Pain and Despair
in the Poetry of Ibn al-Rumi

م.د.حسام جاري زوير م.د.أثير عبد الزهرة عبد علي
وزارة التربية ،المديرية العامة لتربية ذي قار ،العراق

Dr. Hossam Jari Zuwair
Dr. Atheer Abdul-Zahra Abdul-Ali

الملخص:

عـرف الأدب في العـصر العبـاسي قمـة نمـوه ونضجـه، فـكان صـورة ناصعـة لمـا حققتـه الحضـارة الإنسـانية عـلى يـد العـرب بـكل أشـكالها، وبـات الشـعر غايـة العامـة والخاصـة فتنافـس أغلبهـم عـلى أبـواب حكامهـم، وكـثُر عـدد النظّامـين والشـعراء ورسّـخ التاريـخ مَـن اسـتطاع إثبـات موهبتـه الشـعرية الحقّـة، فذاعـت شـهرة الكثيريـن منهـم ممـن كان لـه قـدرة المحافظـة عـلى مكانتـه لـدى الحـكام، غـير ان ابـن الرومـي تمكـن بعبقريـة الشـاعرية أن يكتـب اسـمه في رقيـم الخالديـن ، رغـم عـدم اشـتراكه في السـباق الاجتماعـي السـياسي، فـكان ترجـمان الأحاسـيس والعواطـف الانسـانية، وهـذا مـا انعكـس في شـعره الـذي يعتـبر نموذجـاً رفيعـاً للشـعر الرقيـق والإنسـاني حـين ترجـم فيـه عواطـف وأحاسـيس النفـس البشريـة ، لذلـك جـاء بحثنـا موسـوماً بـ» الألم واليـأس في شـعر ابـن الرومـي» ، الـذي نـال حيـزاً واسـعاً في شـعره. وقـد اقتضـت طبيعـة الموضـوع أن نتبـع المنهـج الوصفـي مـن أجـل وصـف الظّاهـرة التـي نحـن بصـدد دراسـتها، كـما اتخذنـا مـن التحليـل أداة ووسـيلة لتفسـير وتحليـل القضايـا التـي

أثارهـا الشـاعر في تجربتـه، بهـدف الايضـاح وتبيـان أثـر الألم واليـأس في الادب العـربي واسـبابها لـدى الشـاعر مـن خـلال نصوصـه الابداعيــة .

الكلـمات المفتاحيـة: ابـن الرومـي، الشـعر العـربي، الألم، اليـأس، العـصر العبـاسي.

Abstract*

Arabic literature reached the height of its development and maturity during the Abbasid era, serving as a vivid reflection of the achievements of human civilization under Arab influence in various forms. Poetry became a central pursuit for both the elite and the general public, with many poets competing for recognition at the courts of rulers. The number of poets and versifiers grew significantly, and history has preserved the names of those who demonstrated genuine poetic talent. Among those, many gained fame by maintaining close ties with the political elite. However, Ibn al-Rumi, through his remarkable poetic genius, managed to etch his name among the immortals despite remaining distant from the social and political arenas. He emerged as a true voice of human emotion and sentiment—a quality that deeply marked his poetry, which stands as a distinguished example of refined, emotional, and humane verse. His ability to articulate the inner feelings and psychological states of the human soul is especially notable.

Accordingly, this study is entitled "Pain and Despair in the Poetry of Ibn al-Rumi", as these themes occupy a prominent place in his poetic works. The nature of the subject required us to adopt a descriptive approach to outline the phenomenon under investigation. We also employed analytical methods to interpret and explore the issues raised by the poet in his personal and creative experience, aiming to clarify and highlight the impact of pain and despair in Arabic literature and the factors that shaped these emotions in the poet's life, as reflected in his literary texts.

Keywords :Ibn al-Rumi, Arabic poetry, pain, despair, Abbasid era.

المبحث الأول : السياق التاريخي والثقافي

حياة ابن الرومي وعصره

هـو أبـو الحسـن عـلي بـن العبـاس بـن جريـح، ولـد في بغـداد ٢٢١هـ ، وكان مـولى لعبيـد اللـه بـن عيـسى بـن جعفـر بـن المنصـور الخليفـة العبـاسي، وينتسـب إلى الـروم مـن ناحيـة أبيـه، وإلى الفـرس مـن ناحيـة أمـه، وعـاش في كنـف أخيـه الأكـبر إثـر وفـاة والـده[1] .

نشـأ في بغـداد وكانـت حـاضرة العلـم ، فتقلـب في العلـوم والمعـارف حتـى اسـتقام لـه اللسـان العـربي، مـع موهبـة شـعرية منحهـا اللـه لـه، فغـدا شـاعراً مـن شـعراء عـصره، يمتلـك حسـاً مرهفـاً ، وسـعة في التصويـر والخيـال.

ذكره ابن رشيق، فكان يرى أنَّه « أولى الناس باسم شاعر، لكثر افتتانه» [٢]، ويقدمه المرزباني على البحتري في الهجاء فيقول:» سبق وتفوق ابن الرومي، وبخاصة في فن الهجاء على البحتري الذي قصر عن مداه»[٣] .

غير أنَّ القاضي الجرجاني لم يكن يرى ابن الرومي بنفس العين التي كان يراه بها ابن رشيق والمرزباني، فكان رأيه في ابن الرومي صادماً، حيث قال:» وقد تجد كثيراً من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي، ويغلو في تقديمه، ونحن نستقرأ القصيدة من شعره، وهي تناهز المائة أو تربي أو تضعف فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين»[٤] . ولعل هذا الرأي للجرجاني مرده أن منهج ابن الرومي في نسخ شعره يدل على طول نَفَس، وترابط الأفكار، وكثرة الاستقصاء لدقائق الأمور، كل هذا بلا تكرار ، أو سقط، رغم طول القصيدة الممتد، وقلما يسلم شاعر من ذلك.

عاش ابن الرومي حياته في العراق ، وعاصر من خلفاء الدولة العباسية سبعة هم: المتوكل على الله، المستنصر بالله، المستعين بالله، المعتز، المهتدي، المعتمد، والمعتضد.

وليَّ المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢هـ واستمر فيها حتى سنة ٢٤٧هـ، ووصف عصره بالرفاهية، ورغد العيش.. وما لبث هذا أن تغير بعد أن قتله ابنه المستنصر ليتولى الخلافة ستة اشهر، حيث مات بعدها، وخلفه المستعين الذي قُتِل بعد أن تولى الخلافة بين سنة ٢٤٨- ٢٥٢ هـ، ثم تولى المعتز وما لبث الأتراك أن خلعوهوولوا مكانه المهتدي ، وكان أقوى شخصية من أخيه .. فأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر.. وكان صالحاً غير أن ذلك لم يعجب الأتراك، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه، فما زالوا به حتى قتلوه[٥] ، وتولى الخلافة المعتمد على الله سنة ٢٥٦هـ ، وكان عصره حافلاً بالاحداث الدامية مثل ثورة الزنج التي ألهمت ابن الرومي قصيدته التي يقول في بعضها واصفاً:

كم أخ قد رأى أخاه صريعاً
ترِب الخَدِّ بين صَرعْى كرامِ
كم أبٍ قد رأى عزيزَ بنيه
وهو يُعلى بصارمٍ صمصام
كم مُفدى في أهله أسلموه
حين لم يحمه هنالك حامي
كم فتاة بخاتم الله بِكر
فضحوها جهراً بغير اكتتام[٦]

ثم يصف البصرة التي تحولت الى انقاض ، فيقول:

أين ضوضاءُ ذلك الخلقِ فيها
أين أسواقها ذواتُ الزحام
أين فُلكٌ فيها وفُلكٌ إليها
مُنشآتٌ في البحر كالأعلام
أين تلك القصورُ والدورُ فيها

أين ذاك البنيان ذو الإحكام
بدِلت تلكمُ القصور تـــــلالا
من رمادٍ ومن تُراب رُكام [٧]

إذن عصر المعتمد وأيامه أيام حروب وفتن، وكان المعتمد فيها ضعيفاً، فتمكن أخوه الموفق من انتزاع السلطة منه، ولم يبق له الا الاسم فقط، غير أن موت الموفق أعاد إليه جزءاً منها، بيد أن ابن الموفق كان طموحاً فانتزع من عمه ولاية العهد، وحين مات عمه عُينَ خليفة سنة ٢٧٩ هـ وقد وصفه ابن الأثير بقوله: « كان شهماً شجاعاً مقداماً، وكان ذا عزم، وكان فيه شح، وكان عفيفاً مهيباً عند اصحابه، ، يتقون سطوته ويكفون عن الظلم خوفاً منه» [٨].

واستمر المعتضد في الخلافة حتى وفاته سنة ٢٨٩ هـ، وتولى الخلافة ابنه المكتفي بالله، تلك كانت الحقبة التاريخية التي عاشها ابن الرومي، أهم سماتها كثرة الدسائس والخلافات والصراعات التي جعلت منه عصراً مضطرباً سياسياً.

أما حالة العصر الاجتماعية فكانت كلها نفاق، وغش، وتملق، ومجون لأصحاب القول والصول من شرطة ، وكتّاب ، ووزراء، وتجّار.

فضلاً عن ان العصر العباسي شهد تطورات حضارية وعمرانية، لانفتاحه على الامم الاخرى، فاتسعت معارفه، وزادت مشاربه، وعلت ثقافته، مما أسهم في التطور الاجتماعي، والمستجدات الحديثة من الامم الاخرى كالفرس والهنود وغيرهم.

وعليه فقد تهيأ للعصر العباسي مدنية متحضرة أسهمت في ايجاد وابداع شعري جديد، استطاع أن يحتوي تلك التطورات ويعبر عنها. ومن المحتمل أن تحدث هذه التطورات تميزاً، وتفاوتاً طبقياً في المجتمع العباسي، فكان هناك تناقض كبير في مستوى المعيشة ، فعاش الحكام حياة مترفة لاهية ، بينما عاشت الطبقة الفقيرة حياة الفقر والقلق الاجتماعي، فنتج عن هذا التمايز ثورات وحركات مثل ثورة الزنوج، وحركة القرامطة التي رفضت الواقع المرير، وكان سيصبح لها شأن آخر لولا اعتمادهم على سفك الدماء والقتل[٩] ، ولما كان ابن الرومي واحداً من اولئك الشعراء الذين عاشوا ذاك الواقع المضطرب، وانصراف الخلفاء عن معالجة هذا الواقع الى اللهو، والترف، فاختار لنفسه نغمة شعرية خاصة فميزته شعرياً وصارت سجية فيه، وخصلة عنده.

تلك النغمة هي «السخرية» فكان يستعين بها لتكون ملاذه حين يريد الهروب والفرار من هذا الواقع، ويعلق العقاد بقوله: « إذن تلخصت الحالة السياسية في سوء الظن ، فقد تتلخص الحالة الاجتماعية في اغتنام الفرصة، وغن هذا وذاك في الحالتين كالشيء وظله، أو كالصوت وصداه»[١٠] ، أما

من الناحية الفكرية فلم يكن العصر عصر العلوم القديمة وحدها، لأن العلوم الحديثة المنقولة والموضوعة أصبحت شرطاً في الكاتب والاديب، لا تتم بغيرها كتابه وأدبه.

واغلب الظن أن ابن الرومي كان معتزلياً ، حيث وقف على أصول، وقواعده، وكان طبيعياً أن يتخلل ذلك شعره، بيد أن ابن الرومي لم يستطع أن يُلبس الفكر ثياب الفن، ووقع في براثن المعنى الفلسفي دون أن يحكم قياده، فكان المعنى يهرب منهُ من رحاب شعره إلى فضاء الفكر، ونوازع النفس إلى فضاءات فكرية ونفسية هي أرحب من رحاب المعنى الشعري والفني ومن ذلك ما يمدح به معاتباً:

كُنتَ ممن يرى التشيعَ لكن
مِلتَ في حاجتي إلى الارجاء[11]

فهو يقرر انصراف ممدوحه عنه، وتنكره له، فلم يقض حاجته، ولم يعطه رغبته، لكنه آثر أن يخفي هذا المعنى خلف ستار مصطلحين سياسيين دينيين هما: التشيع بمعناه السياسي والديني اللذين يؤكدان أحقية علي ابن ابي طالب (عليه السلام) وأبنائه في الخلافة، ثم مصطلح الإرجاء: أي لم يكفّروا أحداً من أهل السنة والشيعة وغيرهم، وإنما أرجأوا الأمر كله الى الله لينظر فيه.

ان ابن الرومي لا يعرض المعنى دون تعليل له، ولا مبرر لمجيئه، فلا يعتمد على ترهات، وأحاديث كاذبة، فغالبا يلجأ الى التعليل والقياس ، فنراه يعرض لقضية الصديق وغدره بطريقة منطقية ترتكز على القياس المعتمد على المقدمات والنتائج متأثراً في ذلك بثقافته المنطقية، فيقول في هذا:

عدوُّكَ من صديقك مستفادٌ
فلا تستكثرنَّ من الصحّابِ
فإنَّ الداء أكثرَ ما تراه
يحولُ من الطعام أو الشرابِ[12]

قاس الصديق على الطعام ، والغدر على الداء، فوجد ان الداء يكون خطيراً عندما يكون داخل الطعام لا نراه، لأننا لو رأيناه ما أكلناه، وكذلك الصديق الذي يتحول إلى عدو فيأتي خيره من حيث لا نتوقع خطره ، مثلما تؤدي كثر الأكل الى المرض فكثرة الأصدقاء تؤدي الى كثرة الأعداء وهذه فلسفة ابن الرومي في الحياة .

لقد بلغ ابن الرومي من هذه الثقافات رصيداً ضخماً، حتى قيل: « إنَّ الشعر كان أقل أدواته، وكان لابد لتلك الثقافة من أن تظهر في شعره وتتجلى فيه.

وثقافته الواسعة المتنوعة، وقدرته على الجدل ولاحتجاج جعلتاه يقف عند المعنى الواحد المألوف فيفصل القول فيه مادحاً، ثم يمذمه مفصلاً في ذكر عيوبه ، دون أن يخلَّ بالمعنى في كلتا الحالتين، ومنها استقصاء المعاني، فثقافة ابن الرومي الواسعة وقدرته

على الجدل والحجاج قادته إلى تقصي المعاني واعتصارها اعتصاراً شديداً لا يبقى فيه زيادة لمستزيد، مع المحافظة على الوحدة العضوية فيها، فكل بيت يرتبط- غالباً باخيه من قبل ومن بعد؛ لأن المعنى لا يكتمل الا اذا قرأنا ما قبله وما بعده، فالمعاني عنده متولد بعضها من بعض، ولا سبيل إلى الفصل بينها في كثير من الأحيان؛ وهذا سبب من اهم أسباب إطالة القصائد في شعره.

وهذا التقصي واضح كل الوضوح في شعره ، ولا تكاد تخلو قصيدة منه، فالشيب مثلاً موضوع تكلم فيه الشعراء كثيراً منذ الجاهلية، لكن ابن الرومي لم يترك معنى يمكن أن يقال في الشباب والمشيب إلا أتى به، من خلال تفصيل زائد يعتصر فيه المعنى ولا يترك فيه شيئاً.

من ذلك قوله في رثاء شبابه، وقد جعله مقدمة لقصيدة مدحية من مئة وخمسة وسبعين بيتاً، منها سبعين بيتاً في رثاء الشباب والتفجع عليه، وفي هذه الأبيات السبعين تكرر عبارة (يُذكرني الشبابَ..) ثماني مرات؛ فمرة يذّكره الشباب عطشه الطويل إلى رضاب النساء الجميلات فيفصل القول في ذلك، ومرة أخرى يذكّره الشباب انصراف النساء عنه لشيبه، ومرة ثالثه يذكّره الشباب ما فعلته أحداق النساء بقلبه، وهكذا قبل أن يصل إلى المديح فيقول:

يذكّرني الشبابَ صدىً طويلٌ
إلى بردِ الثنايا والرُّضابِ
وشُحِّ الغانيات عليه إلا
عن ابن شبيبةٍ جونِ الغرابِ
فإن سقيتني صرَّدن شُربي
ولم يكُ عن هوىً بل عن خلابِ
يُذكّرني الشبابَ هوانُ عتبي
وصدُّ الغانيات لدى عتابي[١٣]

التفت ابن الرومي إلى احواله كثيراً وتأملها وعبّر عنها في شعره، مبيناً ما لحقه من ظلم وغُبن على أيدي أبناء مجتمعه، أو على أيدي الطبيعة التي زادت في مصائبه ونوائبه، فقد أشار إلى زرعه الذي قضى عليه الجراد، وإلى ممتلكاته التي أتى عليها الحريق، كما أشار إلى محاولات عدّة لاغتصاب ممتلكاته ، مرة على يد أحد المتسلطين، ومرة على يد إحدى النساء ذوات اليد الطولى في الدولة.

وهذا الشعر يضيء جوانب كثيرة في حياة ابن الرومي، ويساعد في الكشف عن كثير من أخباره التي ضاعت عبر الزمن، فتغدو أشعاره عندئذ وثيقة تاريخية لا تقل أهمية عمَّا جاء به المؤرخون من اخبار عن ذلك العصر المضطرب. فقد أتى الجراد على زرعه فقضى عليه، فلم يجد ابن الرومي إلا ممدوحه يستعطفه على ما أصابه من أضرار فيقول:

لي زرعٌ أتى عليه الجرادُ
عادني مذ رَزئتهُ العوّادُ

كنت أرجو حصاده فأتاه
قبل أن يبلغ الحصادَ حصادُ[١٤]
ثم جاء الحريق فقضى على ما بقيَّ من املاكه:
وبعدُ فإنَّ عذري في قصوري
عن الباب المُحجَّبِ ذي البَهاءِ
حدوث حوادثٍ منها حريقٌ
تحيَّفَ ما جمعتُ من الثراءِ
أعاني ضيعةً ما زلتُ منها
بحمد اللهِ قِدماً في عناءِ[١٥]

ويقول ابن الرومي يباهي بأصله الرومي أو اليوناني من جهة أبيه، وباصله الفارسي الساساني من جهة أمه، مشيراً الى انه سيصل إلى الأمجاد التي وصل إليها اجداده فيقول:
إنْ لم أزر ملِكاً أشجي الخُطوب به
فلم يلدني أبو الأملاكِ يونانُ
بل إنْ تعدَّت فلم أُحسن سياستها
فلم يلدني أبو السوَّاسِ ساسانُ[١٦]
ثم يرى أن الروم أهل أمجاد وقوة وحكمة، وأنَّه وقومه لا يرون وجوههم في المرايا كالنساء، وانَّما يرونها في صفحات السيوف البيض القاطعة، فيقول:
ونحن بنو اليونانِ قومٌ لنا حجى
ومجدٌ وعيدانٌ صِلابُ المعاجمِ
وحلمٌ كأركان الجبالِ رزانةً
وجهلٌ تفادى من جنُ الصّرائمِ
وما تتراءى في المرايا وجوهنا
بل في صفاحِ المُرهفاتِ الصوارمِ[١٧]

المبحث الثاني : الألم :
يعتبر الألم من أقدم الموضوعات التي سايرت حياة الإنسان منذ ولادته حتى مماته، فهو جِبلة انسانية أودعها الله عز وجل على قلوب البشر، باعتباره قيمة تسري في وجدان الناس من جراء المصائب والمحن، ويعبر عنّه بانفعالات عديدة لكونه المرآة الصادقة التي تعكس نفسياتهم وتخفف عنهم حجم المصيبة أو الهم إزاء فقد ما.
ويرى محمد بوزواوي أنَّه « شعور نفساني يغير النفس كلها، ويرادفه الغم والهم والكآبة والحزن، وقد يحصل الألم للنفس بالعرض كوقوع مكروه، وإما أن يحصل لها بالطبع لإنطواء مزاجها على القلق والاضطراب»[١٨] . كما يعرِّفه أهل اللغة بأنَّه « الوجع ، أما عند الفلاسفة فهو حالة نفسية يصعب تعريفها وتتميز بإحساس مادي ومعنوي بعد الراحة أو بالضيق أو بالمضض»[١٩] ، ونستنبط مما سبق أن الألم حالة نفسية تصيب فؤاد الإنسان وتدخله في دوامة حزن ويأس وضيق بسبب فقدان عزيز أو تألمهم عن أنفسهم، مما تجعل قريحتهم تتفجر أسى وحرقة .
ويقول أيضاً الأديب الفرنسي» أنا نول» « أن الشاعر يجمع هوائج النفوس فيبعث حياة كل واحد من البشر يشعر بفرح كل من يفرح، ويحس بألم كل من يتألم في هذا العالم»[٢٠] ، مما يدل على أن الشاعر

يحس بعواطف الانسانية ومكنوناتهم النفسية، ويتفاعل مع شعورهم سواء في الفرح أو الحزن، وهذا ما نراه في تجربة ابن الرومي فلعل ما كان من شعوره بالألم ، انما كان مرده إلى استعذابه الجمال الذي كان ضالة المبدعين، ومن شعراء في عصره وغير ذلك فانشغلت به الأذهان، وعدّ الدارسون تعبيره عن الألم من فلسفة في أجمل ما تجسده الكلمات، يقول [٢١] :

شُعِفَت به فأذاقها طرفاً
مما تُذيق محالفَ الكتم
فبكت بدمعٍ لا يُجاُ بـه
إلا لذي قَدرٍ من الألم
من مقلةٍ سقمت فغايتُها
إعداء ما فيها من السَّقم

فمما لا شك فيه أنَّ الألم هو شعور إنساني يعبر عن معاناة الشاعر وحالته النفسية « محولاً دفة شعوره نحو الأهل من الحزن الى الذكرى، محاولاً طي كل احساس بالألم والحزن ويحل محله احساس الشغف والاعجاب، وقد ارتأى أنها طريقة مناسبة للتخفيف أفضل من تهييج احساس ألم الفقد»[٢٢]، فقد فقَدَ ابن الرومي اولاده الثلاثة وأمه وزوجته وأخاه معيله، مما جعله « يستشعر في أعماقه حزناً ممضاً ، فكان شعوره بالبؤس والحرمان يضاعف حزنه، وكأنما الحياة كلها أمامه أحزاناً ومآتم»[٢٣] ، التي تعكس حجم المعاناة التي يكابدها من جراء المآسي والمحن التي وقعت على نفسه وفجّرت قريحته، ومن أشد الآلآم التي اشعلت وجدانه حرقة رحيل ابنه الأوسط، وعبر عنها بقصيدة طويلة و بعاطفة صادقة يكشف من خلالها عن احساس النفس البشرية في مفارقتها لفلذة كبدها، ولننظر قوله[٢٤] :

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يُجدي
فجودا فقد أؤدى نظيركمـــا عندي
بُنيَّ الذي أهدتهُ كفّاي للثّـــــرى
فيا عزّة المُهدى ويا حسرة المُهدي
ألا قاتل الله المنايـــا ورميـــها
من القوم حبّـات القُلوب على عَمد

نراه من خلال هذه الأبيات يعبر عن محنته الأليمة خير تعبير، بعبارات مثقلة بالحزن والوجع، جعلته يخاطب عينيه ويطالبهما أن تفيضا بالدموع لكونها دلالة من دلالات الحزن ، فالبكاء بمثابة دواء لداء الألم لجرح الفقد، وهو يعلم أنّها لا تجدي نفعاً في تغيير القدر، معتبراً ذلك نظير فقد عينيه التي يبصر بها، وعبّر بتحسر كيف أنّه دفن ابنه تحت التراب، كأنّه يهدي القبر هدية وبداخله لوعة كبيرة، بل الأكثر من ذلك ثورة ابن الرومي على الموت وتمثيلها في شكل انسان يخطف الاشخاص، لظنّه أنّها تتعمد في اختطاف فلذات أكباد الناس، وكأنّه يعاتبها لأخذ جزء من قلبه ، بكلمات تصدح بالأسى واللوعة، ليعكس لنا حجم الفاجعة التي لا تكاد أن تمحى

من ذاكرته، فهكذا « يصبح ابن الرومي مصوراً بارعاً يعيد الى الناس ما شاع فيهم... وهكذا تصبح العملية الفنية للشعر وكأنّها تجري في الذهن الخالي دون المرور في النفس الشاعرة»[٢٥] .

تعد مصيبة الشاعر في فقدانه لولده من أشد وأمرّ المصائب التي نزلت عليه ، فقد كانت لها أثراً عميقاً في نفسه، وذلك جعله يرفض حقيقة موت ابنه، ويتعجب من القدر متسائلاً كيف استطاع

الله أن يختار ولده الأوسط ، ومن ذلك قوله[٢٦] :

توخّى حمَام الموت أوسط صبيتي
فلله كيف اختار واسطة العقدِ
على حين شمّت الخير من لحماته
وأنست من أفعاله آية الرشد
طواه الرّدى عنّي فأضحى مزَاره
بعيداً على قُرب قريباً على بعد
ألحّ عليه النزف حتى أحاله إلى
صُفرة الجادي عن حمرة الورد

ولعل هذه الأبيات تمثل مأساة انسان يحترق قلبه على قرة عينه ، وتصور حالة كل أب يبتلى بموت احد اولاده، حيث نراه يتأوه ويتوجع على فقدان قطعة من قلبه، فقد رسم لوحة حزينة مفعمة بالحزن والحسرة يصور فيها حجم الألم الذي بداخله وحرقة وجده على ثكله التي أخذته المنيّة منه، بعد أن شبَّ وبلغ سن الرشد، ثم يشتكي بأسى وحسرة بعده عنه بالرغم من قرب قبره منه لكن روحه بعيدة واذا غابت النفس ليس للجسم معنى، ثم يصف حالة احتضار ابنه والمرض ينهش جسمه حتى أحال لونه من الاحمرار الى الاصفرار الذي يرمز للذبول، وهذا الموقف من أكثر المواقف استفزازاً للمشاعر الانسانية، وتأثيراً على النفوس ، مما يدل على صدق شعوره « أنّه مهما تعددت أساليب الشعراء للتعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم، ومدى وقع مصيبة الفراق والموت على انفسهم وقلوبهم، وانفعالاتهم النفسية مع الحدث المفجع، إلا أنَّهم يشتركون جميعاً في صدق العاطفة»[٢٧] . فهي التي تظهر مدى تأثر الشاعر بالحدث الأليم الذي وقع على نفسه ، بغية تأثير في المتلقين وإشراك مأساته الإنسانية معهم.

وتجدر الاشارة الى أنَّ أغلب قصائد ابن الرومي انطلقت من تجاربه الأليمة، وظروف حياته القاسية التي تعبر عن مأساة فقدان أقرب الناس إليه، والغاية منها نقل تجربته الحزينة عبر شعره « فكان كل ما فيها يبعث الحزن واليأس، وهذا لهما أكبر الأثر في صقل النفوس، وفي التأثير على نظرة الإنسان للوجود و الأحياء «[٢٨]، فالانسان بطبعه عندما يصيبه بلاء أو مكروه تجده يتأمل في الكون وفي الوجود الذي يعيش فيه، ويفكر في الموت الذي تترك فراغاً كبيراً

في نفس الانسان، وجراحاً تتقطر ألماً على مَن فارقوا الحياة، ومن مثل ذلك فقدانه لزوجته مما خلفت في نفسه حزناً عظيماً ، وقد عبّر عن ذلك بقوله [٢٩] :

عينيَّ شُحَّا ولا تَسُحَّا
جلَّ مُصابي عن البكاء
تركّكما الداءَ مُستكنّاً
صدقُ عن صحة الوفاء
إن الأسى والبكاء قدما
أمران كالداء والدواء
وما ابتغاء الدواء إلا
بغيا سبيل إلى البقاء
ومُبتغي العيش بعد خلَ
كاذبة خُلَّةَ الصفاء

إنَّ هذه الأبيات تنم عن ألم الشاعر في فقد زوجته، حيث نراه متحسراً على فراق رفيقة دربه وأم أولاده فنراه يخاطب عينيه وينهاهما عن الدموع، لكي لا يشفى من داء الحزن باعتباره وسيلة لتخفيف من حجم المصيبة وإطفاء حرقة الموت، هذا ما جعله يمنع نفسه من البكاء ليدل على حزنه العظيم ووفائه لزوجته، كما يعتبر الدموع سبيلاً لاستمرار الحياة بعدها ، لكن الشاعر لا يريد العيش من دونها، ثم يكشف بأنَّ الحياة من دونها كذبة ليس لها طعم ليؤكد بذلك على غصته عليها وإخلاصه لها، وما نلحظه على هذه المقطوعة اعتماده على العقلانية في بث حزنه التي « تركته في نفسه ملامح واضحة، وفي شعره مسحة من المنطقية غير خافية، على الرغم من أنَّ الموت يضرم حالة لا عقلانية في الانسان، لكن ابن الرومي حاول أن يقبض العقلية في رثائه لزوجته»[٣٠] .

لقد ازداد ألم ابن الرومي بفقدانه لوالدته، فكان له أثراً بالغاً على نفسيته فلوعة فراق الأم الحقيقية لا يشعر بها أحد إلا من عايشه، فهو من أصعب الفراق، فالام هي العطف والرحمة ونبع الحنان ، وفقدانها من حياة الانسان فكأنما فقد كل شيء جميل في الحياة، ولعل هذا الاحساس القاتم جعله يعبر عن مأساته بكلمات تتقطر دماً من جراحه وبإحساس حزين، ومن ذلك قوله[٣١] :

أفيضا دماً إنّ الرزايا لها قيمٌ
فليس كثيراً أن تجودا لها بدم
ولا تستريحا من بكاء إلى كرى
فلا حمد ما لم تُسعداني على السأم
ويا لذة العيش التي كنتُ أرتضي
تقطّع ما بيني وبينك فانصرم
فقدت رضاعا من سرور عهدتها
تعلّلنيه فانقضى غير مستتم
رضاع بنات القلب بان ببيّنها
حميداً وما كل الرُضاع رضاع فم

وما نلحظه من هذه الابيات أن فقدان والدته خلّف في فؤاده جرحاً عميقاً ظل ينزف ألماً طول حياته، فموت الأم ليس بالهين فبمجرد تخيل الموقف تشعر

بغصة تنخر الفؤاد، وتشعل الوجدان فكيف اذا كانت واقعاً ، لذا نجد ابن الرومي يعبر عن وجدانه المتألم في محنة فقدان نبع الحنان، « فهو يعبر عن مأساة النفس تحت وطأة الفجيعة ، ويبوح بغنائية النفس وشجو عمّا يخالجها من أسى وقنوط»[٣٢] ، ومن الواضح من كلام الشاعر أنّه يفصح عن حرقة وجده بمخاطبة عينية وأمرها بذرف الدم بدل الدمع من دون أخذ راحة ، لأن البكاء يخفف من حجم الفاجعة، لكنه هو يريد تعظيم حجم المصيبة التي نزلت عليه ليكشف عن عمق حزنه، كما يظهر لنا قلة صبره وانكساره بصدحه أن ببعدها عنه انقطعت أواصر العطف والحنان، كما فقد طعم الحياة، وفطم على الرضاعة فهو ليس يقصد بها رضاعة الفم التي تخص الأطفال وأنَّما يخص بها رضاعة العقل والروح بمنحه الحب والعطف والحنان، وغرس فيه مبادئ الأخلاق والدين والتربية الصحيحة.

وعلى غرار ذلك نجد عنده أشعاراً أخرى يخص بها غير أهله، يفيض فيها ألمه وتحسره على مَن فقدهم ممن يحبهم، « فالشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب بل يندب أيضاً مَن ينزلون منزلة الأهل والنفس ممن يحبهم ويؤثرهم»[٣٣] ، وقد عبر ابن الرومي عنهم بأبيات يظهر فيها وجعه وتحسره على مَن فارقوه من أحباب، كجزعه على بستان المغنية، وذلك بتعبيره عن تجربة صادقة ووصفه لمشاعره الذي يطغى عليها الأسى والحسرة ، إذ نحس فيها تشابكاً بين عواطفه، فقد مزج ابن الرومي بين أساه على بستان وحبَّه لها، هذا ما خلف في نفسه ألماً عميقاً ،وذلك يتجلى في قوله[٣٤] :

بستان يا حسرتا على زَهَرٍ
فيك من اللهو بل على ثمرِ
بستان أضحى الفؤاد في وَلهٍ
يا نزهة السمع منه والبصر
بستان ما منك لامرئٍ عوضٌ
من البساتين لا ولا البشـــرِ
بستان أسقيتِ من مدامعنا الـ
ـدَّمع وأعقبت عُقبةَ المطـــر

يصور لنا في هذه القصيدة مدى حسرته وأساه علىالمغنية بستان، حيث يتجه يخاطبها بكلمات تنزف ألماً يخبرها بأنَّ فقدانها أفقد عنده أيام اللهو وكاد أن يذهب عقله من شدة حزنه عنها، ثم يعبر لها بمرارة حارقة أن مكانها لا يستطيع أحد من البشر أن يخلفه وحتى بستانها لا يعوضه بستان آخر، هذا ما جعل الشاعر يبكيها بكاءً مرَّاً، باندفاع دموعه بغزارة ليصفح عن شجوه، ويعلِّمها أنَّها ببعدها غاب عنه الفرح، وجفّت النعائم، وأصبح يشكو غصّة في وجده.

كما تجدر الاشارة الى أنَّ حزن ابن

الرومي لم يكن مرتبط بفقدان مَن هم أقرب إلى نفسه فحسب، بل تعدَّى ذلك الى اظهار ألمه وحسرته عن نفسه ومعاناتها من عاهات ذاتية كالصلع وفقدان الشباب لكونه من أفضل وأعظم الفترات التي يمر بها الانسان، ففيها يبرز ذاته ومكانته في المجتمع ويحقق أماله وتطلعاته، « باعتبار مرحلة تحقيق الذات ، ومرحلة الحب والمدح ، ومرحلة نمو الشخصية وصقلها، ولأهميتها أكرم المولى سبحانه وتعالى الداخلين الى الجنة أن يبقوا في مرحلة الشباب التي هي المرحلة الأجمل في عمر الانسان»[٣٥] ، لهذا نلمس في بعض نصوص ابن الرومي وجعه وقهره على أحسن مرحلة عاشها في حياته مستمتعاً بلذاتها، وبين لنا بحرقة وكمد أنَّ انقضاء شبابه يُعكر صفو عيشه، وقد عبَّر عن ذلك بأبيات مثقلة بالحزن والحسرة، ومن ذلك قوله[٣٦] :

يا شبابي ، وأين مني شبابي؟
آذنتني حباله بانقضاب
لهف نفسي على نعيمي ولهوي
تحت أفنانه اللَّدان الرّطاب
قلتُ لما انتحى يَعُدُّ أساهُ
من مصاب شبابهُ فمُصاب
ليس تأسو كلومُ غير كُلومي
ما بهِ ما بهِ وما بيَ ما بي

والمتأمل في هذه الأبيات حرقة وجد الشاعر على شبابه جعلته يخاطب شبابه فكأنَّه انسان يسأله كيف تركه وذهب وانقطعت الحبال التي تصله به، ثم نراه يتحسر على نعيمه بمرحلة القوة الذي كان يحس فيها بالمتعة وطعم الحياة فيه ، كما أراد أن يرفض من يصبره في شبابه، ويعدَّه فاتحاً للجرح من جديد، وقد نهاهم عن مداومة كمده وقلبه مشتعلاً بنيران الشوق له. ولا شك أنَّ في مختلف الأشعار منذ القديم إلى العصر الحديث أنَّها تضم قصائد حزينة على أهم فترة في حياة البشر، لكونها من مراحل القوة الذي يحقق من خلالها الفتى إنجازاته ويعبر عن آرائه « لذا لابد على النفس أن تبكي على أروع مراحل العمر ، وأمرعها وأخصبها ولابد أن تشكو ذهوبها وأن ترثي ارتحالها»[٣٧] ، هذا ما جعل ابن الرومي يعزي نفسه في فقدان شبابه، فقد كان غيابه بالنسبة إليه، فكأنما غاب وانقطع كل شيء جميل في حياته لكونه نعم المؤنس والمجاور له في المحن ، لذا نراه يتأسى عنه ويتألم عن نفسه الذي فارقت أروع مراحل عمره، إذ يقول [٣٨] :

لا بدعَ إن ضحك القتيرُ
فبكى لضحكته الكبيرُ
عاصى العزاءُ عن الشبا
ب، فمطاوعَ الدمع الغزيرُ
كيف العزاءُ عن الشبا
ب، وغصنُهُ الغُصنُ النضيرُ
كيف العزاءُ عن الشبا

ب، وعيشهُ العيشُ الغـــــرير؟
سقيا لأيـــــام مضـــتْ
وطويلُها عنـــــدي قصير

مـا يظهـر مـن خـلال هـذه الأبيـات إحسـاس الشـاعر المفجـوع بشـبابه الـدال عـلى قلـة صـبره، وحالتـه المتألمـة التـي تعـبر عـن عـدم تحملـه وقهـره عـلى ظهـور الشـيب، فقـد بـكى مرحلـة الشـباب بحـرارة ، لأنـه بالنسـبة لـه مـن أجمـل ملـذات الحيـاة ، لـذا نلحظـه يسـأل نفسـه بـأسى وحرقـة كيـف لـه أن يصـبر عـلى الـذي يجعـل جسـمه جسـماً جميـلاً وحسـناً، وعيشـه عيشـاً طيبـاً، كـما كان لـه القريـب والصديـق، ويعـبر بحـسرة عـلى ايـام العمـر الممتعـة التـي مضـت معـه الـذي لم يكـن يحـس بطولهـا لحلاوتهـا واحساسـه بالراحـة والسـعادة فيهـا.

واضافـة الى القصائـد الأليمـة التـي تـأسّى فيهـا الشـاعر وأبـرز آهاتـه وأنينـه عـلى مـن فارقـوه سـواء مـن اهلـه، أو ممـن يحبهـم وحتـى أسـاه عـن نفسـه، نجـده كذلـك يعـبر عـن لوعتـه عـلى البلـدان التـي خربوهـا الغـزاة ، بتحـسره عـلى مـا فعلـه الطغـاة بالبـصرة وعـن الواقـع المـؤلم الـذي تعيشـه « فقـد بكاهـا حـين اقتحمهـا الزنج، ويظهـر أنهـم كانـوا يسـمونهم الخسـف والعـذاب، ويكلفونهـم مـن العمـل فـوق مـا يطيقـون ، فائتمـروا بهـم، ومـا هـي إلا أن أثـاروا عليهـم فقتلـوا وخربـوا ديارهـم وباعوهـم في الأسـواق بيـع العبيـد» [٣٩] .

لذلـك نـرى ابـن الرومـي يتـأسّى لأجلهـا ويصـور محنتهـا بعواطـف انسـانية صادقـة ، تـدل عـلى تعاطفـه الجمعـي فقـد أظهـر وجعـه وألمـه بأبيـات مشـحونة بالحـسرة والبـكاء فيقـول [٤٠] :

ذادَ عن مُقلتي لذيذَ المنـــام
شُغلها عنهُ بالدموع السجام
أيُّ نوم من بعدها ما حل بالبصـ
ـرة من تلكمُ الهنات العظام؟
أيُّ نوم من بعد ما انتهك الزُنـــ
ـجُ جهارا محارمَ الإسلام؟
إنَّ هذا مـــن الأمور لأمـــرٌ
كاد أن لا يقومَ في الأوهـام
لرأينا مُستَـــيقظين أمـــوراً
حسبُنا أن تكون رُؤيا مـنام

ففـي الأبيـات السـابقة أظهـر لنـا الشـاعر حالتـه الحزينـة المتأزمـة، وأسـاه عـلى مـا آلـت إليـه البـصرة مـن دمـار وقتـل ، وانتهـاك لمحارمهـا وحرمـة الإسـلام خاصـة ، هـذا مـا جعلـه يكتـب شـعراً يقطـر دمـاً ودمعـاً عـلى مـا أصابهـا، وذابـت نفسـه حـسرة عـلى مأسـاتها ، وقـد وجـه اسـتفهاماً يخاطـب بـه عامـة النـاس كيـف لهـم أن ينامـوا ومعـالم البـصرة مخربـة، ومبـادئ الإسـلام مدنسـة ، والغايـة مـن ذلـك طلـب الغـوث والنجـدة، واسـتنهاض ضمائـر الأمـم الأخـرى، ويـرى أنَّ محنتهـا مـن الأمـور التي لا تـكاد تصـدق حتـى في الأوهـام ، وكأنَّـه أصبـح يراهـا منـام وهـو يقـظ لشـناعة النكبـة، مـما جعلـه لا يسـتطيع أن يخفـي

غصص الحزن الذي في وجده، ويظهر إحساسه بمأساة الإنسانية ومشاركته لألمهم ومواساته في نكباتهم وأحزانهم.
ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن ابن الرومي ربط كل شيء في الحياة بالألم ، سواء كانت أفراحاً أو أحزاناً، لا يتلذذ بطعم الحياة إلا إذا ذاق طعم الألم، حتى الطفل الصغير عند ولادته أول شيء يتفوه به هو البكاء ، وخير دليل ما قاله « بأنَّ حياة الانسان مجبولة بالألم، فكل لذة مرتبطة بألم يعقبها، ولا توجد اللذة إلا بالنسبة للألم ، فالصحة مرهونة بالسقم ولا توجد لذتها إلا مقابل ألمه وكذلك جميع اللذات لا تكون إلا لأنها مهددة بما يفسرها كقوله [٤١]:

رأيت حياة المرء رهناً بموته وصحتّه رهناً كذلك بالسّقم

المبحث الثالث:اليأس :

اليأس في لسان العرب يعني القنوط، وقيل : اليأس نقيض الرجاء، والجمع يؤوس[٤٢] ، وقد قيل في اليأس: هو شعور بفقدان الأمل، والاحساس بالعجز والضعف وعدم المساندة، فضلاً عن الاغتراب النفسي وفقد المرء مظاهر القيمة والايجابية والتفاؤل[٤٣] ، واليأس شعور ثقيل، يمنع الانسان من ان يتحرك بسهولة، ويحد تفاعله مع الحياة، ويحطم الأحلام والطموحات، ويحد تطلعات النفس نحو كل جديد وجميل في الحياة، فعدم ثبات الأشياء داخل النفس البشرية، يبعث ذلك شعوراً عميقاً بالخوف والكآبة للتشاؤم والأفكار السلبية.
إنَّ الضربات القوية والنكبات الأليمة التي نزلت على حياة ابن الرومي أثرت على نفسيته أشد التأثير وجعلته يتبصر الى مجتمعه، ومشاكله والقضايا التي تخص الانسان وبيئته، وبذلك فإن شعره مرآة صادقة تعكس مظاهر متعددة ومتنوعة من الحياة ، فمن المعلوم أنَّ الشاعر منطلق من بيئته، لذلك نجدها البؤرة التي يلجأ إليها لتفريغ مكبوتاته والغوص في خفاياه ، فكانت الظروف الاجتماعية القاسية وحياته البائسة وما واجهه من نكبات وصدمات نفسية ترجمها في شعره سبباً كافياً ليأسه من حياته ومجتمعه ، فنجده انطلق في التعبير عن الفئات المحرومة التي تعاني ويلات الظلم من مجتمع لا يعرف معنى الرأفة والشفقة، فقد كان يتسلسل في وصف الفقراء الذين يرضون بقضاء الله ومشيئته ومن المعلوم أن ابن الرومي كثير الاهتمام بالطبقات الشعبية التي لفظتهم الحياة على هامشها، وسحقتهم الأرجل، بنقل أوضاعهم المزرية، حيث يستقر في وجدانه الاحساس الدائم بما تعانيه الفئة المحرومة « لكونه وليد الطبقة المحرومة، فهو أكثر الناس حساً واقدرهم للهوة التي تفصل بين

الطبقات، وما كان يعتمل في نفوس الفقراء»[٤٤] ، ويتجلى ذلك في وصفه لحالة حمال ، بقوله: [٤٥]

رأيتُ حمّالاً مُبينَ العمّى
يعثر بالأكم، وفي الوهدِ
محتَملاً ثقلاً على رأسه
تضعف عنه قوة الجلدِ
بين جمالات وأشباهها
من بَشر ناموا عن المجدِ
أضحى بأخزى حالةٍ بينهم
وكلَّهم في عيشة رغدِ

ففي هذه الابيات ينقل لنا صورة حيَّة حزينة من مجتمعه، التي ملأت قلبه بالأسى والحسرة، وهو يصف لنا حالة حمّال ومصارعته للحياة الخشنة ، وقساوة العيش، فبالرغم من فقدانه لبصره وضعف قواه، إلا انّه يتحمل كل الأثقال على رأسه ويمشي بها ويتعثر لتوفير قوت يومه وسد جوع اولاده.

ولقد تعدد ايضاً مجالس اللهو والشراب في عصره، وكثر اهتمامهم بها، ومغالاتهم في شرب الخمر جعلهم ينأون عن واجباتهم اليومية اتجاه رعيتهم والنظر في شؤونهم ، وذلك يعود لرغبتهم الجامحة للخمور التي تريح العقول وتنسي الهموم، لذا نرى ابن الرومي قد اتخذ من الشعر الخمري وحضوره لمثل هذه المجالس وسيلة للتنفيس عن مكبوتاته والاضطرابات التي بداخله، وكشفه لخبايا مجتمعه وظلم مَن لهم سلطة للانسانية لانشغالهم بمجالس الخمر بما فيها من متعة، مما جعلتهم لا يهتمون بالطبقات الكادحة، لذا نجد ابن الرومي يصف مجالسهم وحبهم لشرابهم، اذ يقول [٤٦] :

كم لديهم للهوهم من كعاب
وعجوز شبيهة بالكَعاب
خندريس اذا تراخت مداها
لبست جدّةٌ على الاحقاب
بنت كرم تديرها ذات كرم
موقد النحر مثمر الأعناب

والواضح من هذه الابيات أنَّ نقمة ابن الرومي على من يملكون زمام الحكم ولا يهتمون برعيتهم دفعه لوصف مجالس لهوهم وشرابهم ، وتقديسهم له، هذا ما يظهر في البيت الثاني اذ عبر عن اهتمامهم بالخمرة حتى وان كانت قديمة أوطال عليها الزمن، الا انها تزداد قيمة عندهم فهي تضم جميع انواع المتعة والجمال.

ومما لا ريب فيه أنَّ « العلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات؛ لأنه ليس هناك من ينكرها ... إن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس، النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة؛ لكي يضئ جوانب النفس، والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة، إنها دائرة لا يفترق طرفاها إلا لكي يلتقيا»[٤٧]

، ومن البواعث على يأس ابن الرومي هو اعتلال صحته، فنجده يقول مبيناً ما طرأ على ظهره من تقوس فضلاً عن معاناته وهن البصر والسمع :

وأضحت قناة الظهر قوس متنها
وقد كان معدولاً وإن عشت فخخا
وأحدث نقصان القوى بين ناظرى
وسمعي وبين الشخص والصت برزخا[٤٨]

فالشاعر في هذه الأبيات يرسم صورة كاريكاتورية لجسمه تنبع عن الحالة النفسية التي يمر بها الشاعر وهي تجعل المتلقي يطيل الوقوف عند هذه الظاهرة التي اسهمت في تكوين فنه عن طريق رسم صورة نفسية له فهو مقوس الظهر قليل البصر عديم الصوت: وفي موضع آخر يسلط الضوء على ما اعترى ظهره من شدة التقوس وما ألمَّ به من لين العظام، قائلاً:

وأرى قوامى لج في تقويسه
ولقد يلج اللين في تعطيفه[٤٩]

ولما داهم الوهن والكلال عظامه غدا في حاجة الى الاستعانة بالعصا:

ودبَّ كلال في عظامي ادبني
جنيب العصا أنأد أو اتأيد [٥٠]

وقد خط الشيب رأس ابن الرومي مبكراً، وعبَّر بشعره عن ذلك قائلاً:

وانّي تفرّع رأسي المشيـــــب ولم أتفرغ ثلاثين عاماً؟ [٥١]

ويهتف قائلاً في لهجة المتعجب المستنكر لمداهمة المشيب حثيثاً:

أيُّها الشيب لم حللت برأسي
إنّما لي عشر وعشر وبنج[٥٢]

واذا كان الشيب قد أحدث له ايجاعاً نفسيَّاً فإنّه أتاه في البداية على نطاق محدود ثم انتشر في رأسه فاشتغل شيباً، حيث يقول:

وما شبت إلا شيبة غير أنّه
قليل قذاة العين غير قليل[٥٣]

وقد قيل : إن هذا من « بارع المعنى واللفظ، ولو لم يكن لابن الرومي في الشيب إلا هذا البيت الواحد لكفاه» [٥٤] ، والواقع أن « الشيب ليس صورة لملامح ابن الرومي، بل هو في حقيقة الأمر انعكاس ضوئي لما يجري في الداخل من نحول الصبوات وفوات الرغبات»[٥٥] ، فنراه يجعله معادل موضوعي للموت ، وهو رزية الرزايا:

وفقد الشباب الموت يوجد طعمه
صراحاً وطعم الموت بالموت يفقد
رزئت شبابي عودة بعد بـــدأة
وهن الرزايا بادئات وعـــوّد [٥٦]

إذ لم يجد ابن الرومي من طعمٍ قاسٍ اشد من حقد الشباب فالامر سيان عنده بين الحياة والموت فلانعي بعد الشباب الاّ عزاء الموت القريب .

ويتسع مجال الخوف من الموت واليأس من الحياة حتى للمستقبل فيقول مترجماً ذلك :

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ؟

ومن أين والغايات بعد المذاهب؟ [٥٧]

ونجده يجأر بشكواه من استعصاء ظفره بالنزر اليسير من القوت، فيقول بنبرة واشية بالاستنكار والتعجب:

أيلتمس الناس الغنى فيصيبهم
وألتمس القوت الطفيف فيلتوي[٥٨]

ويقول شاكياً فعل الدهر به، اذ عصف بثروته ، وخلَّف له الكلوم:

انَّي امرؤ أودى الزمان بثروتي
وألح يكلمني وكفك تدمل[٥٩]

ولأن المصائب لا تأتي فرادى فإنَّ الجراد قد حصد زرعه قبل اوانه في ضيعته التي لم يجنِ من ورائها سوى المعاناة الدائبة، فيقول:

لي زرع أتى عليه الجراد
عادني مذ رزئته العواد
كنت أرجو حصاده فأتاه
قبل أن يبلغ الحصاد حصاد[٦٠]

ويشكو خطوب الدهر قائلاً:

ظلمتني الخطوب حتى كأني
ليس بيني وبينها من حسيب[٦١]

كما يرفع صوته تارة اخرى شاكياً الدنيا ، قادحاً اياها، بعدما نفذ صبره على استهدافها اياه، فيقول:

اوسعتها صبراً على لؤمها
اذا تقصته تطرفتها
فيعجز الحيلة من زورها
إلا اذا ما انا لطفتها
قبحاً لها ، قبحاً على أنَّها
أقبح شيء حين كشفتها[٦٢]

وإنَّه ليراها – اي الدنيا- حرة بالقدح، اذ لم يلقِ منها سوى الحيف والحرمان والالآم المبرحة:

حرمت في سنّي وفي ميعتي
قراي من دنيا تضيفتها
لهفي على الدنيا ! وهل لهفة
تنصف منها إن تلهفتها؟
كم آهة لي قد تأوهتها
فيها ، ومن أف تأففتها؟
أغدو ولا حال تسنمتها
فيها ، ولا حال تردفتها [٦٣]

ولا ريب في أنَّ الصداقة قيمة نبيلة حريّة بالتقدير المجتمعي، بيد أنّه قد يعتريها ما يكدر صفو أفقها، مما ينجم عنه رد الفعل ، ومن هذا المنطلق فإنّ ابن الرومي في الأبيات التالية يتناول ما كان من أحد الأصدقاء نحوه، حيث أساء إليه ، وجحد الوشيجة التي كانت تجمعهما ، فيقول الشاعر:

حبذا حشمة الصديق اذا ما
حجزت بينه وبين العيوق
حين لا حبذا انبساط يؤديـ
ـه مني إلى بخس واجبات الحقوق
وكلت حاجتي إليك فأضحت
وهي مني بموضع العيوق
وجعلت الصديق أولى بأن يُلـ
ـغى ، ويرضى يخلبان البروق
أحمد الله، ما وردت من الإخـ
ـوان غير المكدر المطروق

والى الله اشتكـــــي أنَّ ودي
ليس ممن وددت بالمـــرزوق
مقتي غير وامق تقرع القـــــ
ـــــب فطوبى لوامق مومـــوق[٦٤]

وهنـا ينحـى ابـن الرومـي باللائمـة عـلى احـد اصدقائـه بعـد أن صدمـه مـا بـدر منـه مـن تنكـر واساءة وخـذلان، وكان هذا الصديـق معقـد أمانيـه ، بيـد أنّـه لم يعـنَ بقضـاء حوائجـه، والشـاعر اذ يـبرز هـذه الصـورة السـلبية للصديـق فإنـه يحمـد الله عـلى أنّـه لم يلـق مـن اصدقائـه سـوى التكديـر، كـما يشـكو مـا كان مـن هـولاء مـن قطـع لحبـال الـود، ويبـدي مـا يقاسـيه مـن ألم نفـسي مـبرح، مـردّه الى أنّـه يكـنُّ الحـب لسـواه بيـد أنّـه لا يظفر منـه بالمقة، وبـادٍ هنـا أن الـذات الشـاعرة قـد بثـت شـكواها عـلى نحـو يبـدو فيـه الاتـكاء عـلى ابـراز المفارقـة التـي تعـين عـلى ايضـاح كنـه الموقـف الـذي تناولـه الشـاعر المسـكون بـالألم النفـسي، الـذي اتخـذ شـعره متنفسـاً لتخفيـف حدتـه.

ويهتف شاعرنا قائلاً:

آيست من دهري ومن أهله
فليس فيهـــم أحـــد يُرضى
إن رمت مدحاً لم أجد أهله
أو رمت هجواً لم أجد عِرضا[٦٥]

وهنـا نلفـى الشـاعر قانطـاً محبطـاً حاملاً عـلى الزمـن وأهلـه عـلى نحـو يفصـح عـن دخيلـة نفسـه، التـي تكـن البغـض للدنيـا وذويهـا بعدما قاسـت مـرارة الغـبن والهوان ،ومـن هـذا المنطلـق فـإن الـذات الشـاعرة تتجـلى هنـا في إطـار سـوداوي قاتـم، حيـث تـرى الـورى جميعـاً موصومـين بالسـوء والدنـاءة، فـلا أحـد حـرى بتقريـظ ، بـل إن الشـاعر ليقـف مـن هجائهـم موقـف العاجـز؛ ومـا ذلـك إلا لأنَّهـم فقدوا الاتسـام بالـشرف الـذي يخـول للشـاعر توخـى النيـل منـه، ولعـل هـذه النظـرة الدونيـة تستحضر الى الذهـن موقـف شـاعر عبـاسي آخـر، ذلكـم هـو دعبـل بـن عـلي الخزاعـي الـذي هجـا الـورى قاطبـة عـلى نحـو لاذع عـبر قولـه:

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم
الله يعلم أنّي لم أقـــتل فَـــنَدا
إنّي لأفتح عيني حين افتحـــها
على كثيرٍ ولكن لا أرى أحدا[٦٦]

ويـرى ابـن الرومـي أن الخـير منتـفٍ مـن هـذه الحيـاة المتسـمة بالخيانـة والغـدر والعـدوان ، اذا يقـول:

لا خير في عيش تخوننا
أوقاته وتغولنا مدده[٦٧]

ويقـول أيضـاً في نـص يبـدو فيـه التنـاص مـع أبي نـواس[٦٨] :

وما تعدم الدنيا الدنية أهلهـــا
شواظ حريق أو دخان حـــريق
يجرع فيها مالك فقد هـــــك
فيشجى فريق منهم بفريـــق
فلا تحسب الدنيا اذا ما سكنتها
قراراً، فما دنياك غير طريـــق
متى غمرت دنيا أخاها بمائها

فليس وإن أروته غير غريـــق[٦٩]

ان خطـوب الدنيـا الدنيـة تـترى عـلى الورى في صـور متغايـرة ، لتكـون المحصلـة في نهايـة الأمـر أن يتجـرع بعـض النـاس مـرارة الأسى الناجـم عـن فقـد عزيـز، والصـواب ألا يأمـن المـرء لهـذه الدنيـا، بـل يظـل متوقعـاً أذاهـا، متأهبـاً لشرهـا المسـتطير، وعليـه ألا ينخـدع بظواهـر الأمـور في هـذه الدنيـا الغـرور التـي تقـترن بالـشر والنَّصـب، هكذا كانـت رؤيـة ابـن الرومـي ، وهـي صـادرة عـن ذات مفعمـة بالتشـاؤم المقيـت.

وفي موضـع آخـر يقـول عـن الدنيـا الفانيـة التـي يتربـص المنـون فيهـا بالأنـام ، ويقـف لهـم بالمرصـاد فيرديهـم تباعـاً:

لعمرك ما الدنيا بدار إقامـــة
اذا زال عن عين البصير غطاؤها
وكيف بقاء الناس فيها وإنمـا
ينال باسباب الفنـــاء بقاؤها [٧٠]

ويـبرز أن الحيـاة مـا هـي إلا متـاع الغـرور ، ولا تثبـت عـلى حـال ، فهـي قلـب ، متواشـجة بالشـقاء والـردى تواشـجاً وثيقـاً، فـماذا يرجـو المـرء مـن دنيـا هـذه حالهـا ؟!:

إنما هذه الحيـــــاة غرور
وشقاء للمعشر الأشقيـــاء
نحن فيها ركب نؤم بـــلاداً
فكان قد ألنا إلى الانتهـاء

ما عسى نرتجى ونحن مع الأمـ
ـــوات يحدى بنا أحث الحداء [٧١]

وفي غـير قليـل مـن شـعر ابـن الرومـي يبـدو ناقـماً عـلى الحيـاة والأحيـاء، مـترع النفـس بـالألم المريـر واليـأس الـذي يقـترن بالنظـرة السـوداوية الى عـصره ومجتمعـه والدنيـا قاطبـه، وانَّـه لـيرى الدنيـا دنيـة مقترنـة بالمحـن، وتفـضي ببنيهـا الى المـوت:

هل المرءفي الدنيا الدنية ناظـــر
سوى فقد حب أو لقاء ممـات
ألم ترَ غارات الخطوب ملحـــة
فبين مفاداة وبين ثبـــات؟
سيسقى بني الدنيا كؤوس حتوفهم
الى ان يناموا لا منام سبـــات [٧٢]

والدنيـا لا تصلـح أن تكـون مسـتقرّاً أو دار إقامـة للانسـان ، فـما هـي الا سـبيل أو جـسر للعبـور الى الآخـرة:

وما هذه الدنيا بدار إقامة
ولكنما الدنيا مجاز ومعبر [٧٣]

وفي موضـع آخـر يـرى الدنيـا سـيئة، حيـث تقـترن بالمـوت:

سوأة للحياة والموت حتم
ولبذل الزمان واسترداده[٧٤]

ويصـل بـه الازراء بالحيـاة الى أن يراهـا جيفـة حقـيرة، ويـرى طلابهـا كالـكلاب:

ألا إنّما الدنيا كجيفة ميتة
وطلابها مثل الكلاب النواهس[٧٥]

والشـقاء في هـذه الدنيـا يشـمل الكبـير والصغـير، ومـن هـذا المنطلـق فـلا غـرو في بـكاء الطفـل ابـان ولادتـه؛ لأنَّ في

ذلك ارهاصاً بما سيجرعه في دنياه من عناء وشقاء وشر وأذى ومحن، وكان من المفترض ألا يستقبل الخروج الى الحياة بالنحيب بعد أن خرج الى مكان افسح من المكان الذي كان يضمه، وأرغد منه، ويعبّر الشاعر عن ذلك في اطار جدلي مشوب بالتشاؤم، مغلف بالنزعة الابتكارية، فيقول:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها
يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانها
لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنّه
بما هو لاقٍ من أذاها يهدد[٧٦]

وعلى الرغم من هذه النظرة السلبية الى الحياة فإنّ ثمة مَن يقرر شدّة تعلق ابن الرومي بها[٧٧] ومَن يذهب الى شدة حبه لها[٧٨] بل ان هناك مَن يذهب الى عبادته للحياة[٧٩] .

وليست المفارقة بعجيبة على ابن الرومي؛ فهو صاحب الشخصية المتقلبة، وعلينا أن نفسر مواقفه عبر شعره في ضوء هذا الفهم. ومهما يكن من أمر فإنّ التشاؤم من الظواهر الشائعة في شعره والتي ترجمة يأسه من كل ما حوله .

المبحث الرابع :أساليب التعبير عن الألم واليأس

١ـ التشبيه

اهتم ابن الرومي برسم الصور الفنية المتواشجة بالألم واليأس موظفاً الآليات البيانية ولاسيما التشبيه والاستعارة، وللتشبيه عظيم الجدوى في تصوير ذلك حيث عوّل عليه على نحو يجعله يتبوأ المرتبة الأولى -كميّاً- بين آليات التصوير البيانية ومن صوره الفنية التي تعكس عنايته بتوظيف التشبيه قوله منتقداً فساد الوضع الاجتماعي في زمنه :

دهر علا قدر الوضيع به
وهوى الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه
سفلاً، وتطفو فوقه جيفه [٨٠]

فيبرز عبر هذه الصورة اختلال الموازين، واعتلال المقاييس، فالوضيع يتبوأ الذروة، والشريف قابع في القاع، ولم يكتفِ الشاعر هنا بإزاجاء مضمونه على نحو تقريري محض، بل جنح إلى تصوير فني يثريه ، وكان المعوّل على التشبيه التمثيلي المركب ، الذي يبدو الدهر من خلاله كالبحر، والسراة كالدرر التي ترسب في أعماقه، أما الوضعاء الأوغاد الجهلاء فيبدون كالجيف التي تطفو وتعتلي سطح ماء اليم.

وصورة اخرى يوظف فيها التشبيه التمثيلي في قوله:

رأيتكم تستعدون السلاح ، ولا
تحمون في الروع من أعدائكم سلبا
كالنخل يُشرع شوكاً لا يذود به
أيدى الجناة ولا يحميهم الرطبا [٨١]

فهو هنا يحمل على بعض ولاة الأمور

الذين اعتراهم الوهن والتخاذل حيال خصومهم ، على الرغم من تظاهرهم بالبأس والإقدام ، وإبدائهم التأهب بالسلاح، حيث يشبههم بالنخل الذي يبدي شوكه ؛ درءاً لمن تسول لهم أنفسهم العدوان عليه، ولكن هيهات ذلك ، فهم يستبيحون حماه ، وينتزعون رطبه رغماً عنه، ولا يجديه شوكه فتيلاً ، فالسلاح كالشوك ؛ إذ لا قيمة له ما لم يقترن بمنافس جاد .

وصوّر لنا مدى تأثير حزنه وخيبته وكأنّها غشاوة بدت من نفسه على الكون والوجود كلّه بقوله :

وأظلمت الدنيا وباخ ضياءها
نهاراً وشمسُ الصحو حيرى على القمم
وأبدى اكتئاباً كلُّ شيءٍ علمته

وأضعاف ما ابداه من ذاك ما كتم [٨٢]

لأنَّ حيرة الشمس في الحقيقة تشبه حيرة ذات الشاعر وقد ارتسمت على محيا الشمس ثم عرف أنّه هو الحزن الدخيل وليست الدنيا البادية للعيان هي التي يراها بتلك النظرة الشاحبة. ونجده في موضع آخر يصوّر لنا غروب الشمس وتشبيهها بحزنه وآلامه فيقول:

وقد رنّقت شمس الأصيل ونفضَّت
على الأُفق الغربي ورْداً مذعذعا
وودعت الدنيا لتقضي نحبها
وشوَّل باقي عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهي مريضةٌ
وقد وضعت خدَّاً إلى الأرض أضرعا

كما لاحظت عوّاده عين مُدنفٍ
توجّع من أوصابه ما توجَّعا[٨٣]

يصوّر الشاعر وداع الشمس للطبيعة ساعة الغروب وما ترسل من الشفق الأحمر الشبيه بنبات الورس وأشعتها تتبدد إلا بقايا قليلة فهي توشك أن تلفظ أنفاسها الأخيرة موّدعة الدنيا وهي تنظر الى الكون نظر المريض الذي أثقله الوجع الى عوّاده وتضع خدّها على الأرض إيذاناً بالفراق وأما عيون الزهر المخضلة بالندى فقد أصبحت مغرورقة تدمع وترنو الى الشمس بألحاظ خاشعة فكأن الزهر والشمس هما صديقان تودّعا وخزنا من الفراق.

وعندما خرج ابن الر ومي في نزهة للصيد والتفرّج كان من المتوقع ان يصوّر ذلك بالفرحة والخمر ومتعة السرور لكن الأمر كان على العكس فهو لا يرى القطرات المنحدرة على الأزهار درراً منثورة شأن من سبقه من الشعراء بل يشبهها بدمع العيون ويستدل بها على الأزهار الباكية بقوله:

وظلّت عيون النور تخضّل بالندى
كما أغرورقت عينُ الشّجّي لتدمعا [٨٤]

كما أنّ الشاعر قد خلق مشهداً جميلاً نفسانياً حين يقوم بتصوير إنحناء الأزهار المائلة ويفسّر هذا الانحناء نتيجة الحزن حيث يبث في النبات المشاعر الانسانية:

يراعينها صورا إليها رواناً
ويلحظنَ إلحاظاً من الشجو خشّعا

وبين إغضاء الفراق عليهما
كأنهما خلّا صفاءٍ تودّعا [٨٥]

وعوَّل ابن الرومي على الاستعارة في تشكيل الصور الفنية المتواشجة بالألم والأسى واليأس .

٢ـ الاستعارة

حيث تلت الاستعارة التشبيه – من المنظور الكمي- في هذه الصور ، ولم تأتِ أنماط الاستعارة بمعدل واحد، حيث وردت الاستعارة المكنيَّة في المرتبة الاولى ، وتلتها الاستعارة التصريحية ، أما الاستعارة التمثيلية فلا يكاد دورها يتجلى في رسم صوره ، وقد امتازت الاستعارة بإثرائها فنيّاً.

ففي احدى الصور يشخص ابن الرومي الخطوب التي اقترن بها ، وكان منها التنكيل ، بل إنها أتت على ما يعتد به لديه مما سبب له الألم واليأس، اذ يقول مخاطباً ممدوحه العباس بن القاشي شاكياً إياها:

أشكو إليك خطوباً قد بلعت بها
لم تترك سيداً عندي ولا لبدا[٨٦]

وكان يحيى بن عمر أحد العلويين الذين شقوا عصا الطاعة على العباسيين ، وخرجوا عليهم، وبعد أن لقى مصرعه رثاه ابن الرومي على نحو حار، ولننظر الى الصورة التي خاطبه فيها مبرزاً تأثيره أساه عليه، فهو كاوٍ لقلبه، منضج إياه:

أيحيى العلا: لهفى لذكراك لهفة
يباشر مكواها الفؤاد فينضج[٨٧]

والاستعارة بارزة في الشطر الثاني ، كما تبدو أيضاً في قوله:

لي صاحب قد كنت آمل نفعه
سبقت صواعقه إلى صبيبه[٨٨]

والشاعر هنا يصور كنه وشيجته بخليله الذي كان معقد الأماني في الجدوى ، بيد أنه خذله، بل انه لم ينجُ من أذاه على ما يبدو في الشطر الثاني الذي حمل مضموناً تم إزجاؤه في اطار الاستعارة التصريحية. وفي صورة أخرى قول ابن الرومي :

يا أبا القاسم ، الذي كنت أرجو
ه لدهري، قطعت متن الرجاء[٨٩]

وهنا يخاطب الشاعر أبا القاسم التوزي الشطرنجي الذي طالما علق عليه آماله ، مصوراً كيف خذله ، واجهز على رجائه، مما أفضى به الى هاوية القنوط، وفي الشطر الثاني من هذا البيت يعنُّ تعويل الشاعر في تصويره على توظيف الاستعارة المكنية ، فالرجاء – وهو معنوي- نراه في هيئة مادية بعد أن جعل ابن الرومي له ظهراً قصمه المخاطب .

كما قال في قصيدة يهنئ عبيد الله بن عبد الله:

يدان لا يفتران الدهر من صفد
يغني فقيراً، ولا من فك أصفاد[٩٠]

ويقول أيضاً:

قتل اليّأسُ وهو مستحكِم الأمـ
ـرِ وأحيا المطامعُ ألأنضاءُ [٩١]

ففي هذا البيت شبّه الشاعر اليأس بالإنسان، حيث ذكر المشبه به (اليأس) وحذف المشبه وهو (الإنسان) وذكر لازماً يدل عليه (القتل) على سبيل الاستعارة المكنية، وقد أراد بهذه الصورة أن يعبر عن قضائه للهموم وكل ما يقنط الإنسان، وكأنه يدعوه بذلك للتفاؤل والأمل في الحياة.

ومن هذا يمكن القول بأن الاستعارة في ديوان ابن الرومي اعتمد فيها على التشخيص لنقل تجاربه الانسانية ، والكشف عن المثل العليا في مجتمعه وأثرها على الانسان سواء أكانت قيم محببه أو غير محببه.

٣ـ الكناية

فهي لون من الألوان البيانية، تعتمد في أساسها على التلميح دون التصريح لاستنباط المعاني الحقيقة وإثباتها بواسطة إعمال العقل، هذا ما يزيد المعاني وضوحاً وتأكيداً. ويظهر ذلك في رثاء ابن الرومي لولده:

ألا قاتل الله المنايا ورمينها
من القوم حبات القلوب على عمد
ألحّ عليه الترف حتى احالهُ
إلى صفرةِ الجادي عن حمرة الورد[٩٢]

ففي البيت الأول وظف الشاعر كناية في قوله (حبات القلوب) وهي كناية عن الأولاد الصغار، أما البيت الثاني فيحمل كنايتين أولهما (صفرة الجادي) كناية عن الموت، وثانيهما (حمرة الورود) كناية عن الحياة، فقد أراد بهذه الكنايات أن يفصح عن مشاعره المليئة بالأسى والحسرة على فراق فلذة كبده، وبهدف التأثير في القارئ لمشاركته ألمه وحزنه.

وقوله:

لقيت من البر التباريح بعدما
لقيت من البحر ابيضاض الذوائب[٩٣]

فهو ليس بخافٍ أنه تغيا ابراز شدة معاناته وألمه واصابته بالشيب.

وفي موضع اخر قوله:

فقدناك فاسودت عليك قلوبنا
وحقت بأن تسود وابيضت اللمم[٩٤]

ففي الشطر الأول تعبير كنائي موحٍ بالحزن الشديد، أما الشطر الثاني ففي ضميمته الكناية عن الشيب، وقد تآزرت الكنايتان في بوتقة هذه الصورة وكان مردود ابراز الفقد الجسيم.

ومن ذلك نلاحظ هذه الكنايات جاء بها ليعبر عن المشاعر الانسانية في صور محسوسة ملموسة لزيادة المعاني قوة وتأكيد.

٤ـ الموسيقى الشعرية

روح القصيدة العربية موسيقاها من خلال دندنات البوح يدق الشاعر أبواب المخاطب ويلج فضاء القلوب الموصدة، ينثر مشاعره وأحاسيسه الانسانية بشكل غنائي تأنس لسماعه الآذان وتتأثر به

النفس، فالموسيقى عنصر مهم ، فاصل بين الشعر وسائر الفنون ، ومما لا شك فيه أن الموسيقى نوعان تسهمان في انتاج الدلالة الشعرية وتعميقها في نفس القارئ فمنهما: موسيقى خارجية تهتم بالشكل الخارجي لنظام القصيدة كالوزن والقافية ، وموسيقى داخلية تختص بالمحسنات البديعية والتكرارت ، وما لمسته في شعر ابن الرومي استعمل الموسيقى الداخلية متمثلة بالتكرارات لإبراز معاناته وتصوير الألم واليأس الذي يعيشه ، فنجد تكرار العبارات باعتبارها ترتكز على فكرة معينة وترددها لتأكيد على المعنى المراد هو ابرز اساليب التكرار التي اعتمدها ابن الرومي في شعره، ومن أمثلة ذلك قوله في قصيدة يرثي فيها يحيى:

يا ناعي ابن رسول الله في البشر
ومعلناً باسمه في البدو والحضر
لقد نعيت امرأً ظلّت لمصرعه
قواعد الدين والدنيا على خطر
لقد نعيت امرأً لم تحي مكرمةٌ
إلا به، وبه سارت إلى الحفر
لقد نعيت امرأً ما كنتُ احسبه
ينعاه إلا هويٌّ الشمس والقمر[٩٥]

هنا الشاعر يكرر عبارة (لقد نعيت امرأ) ثلاث مرات، ليوحي من خلالها الى الألم العميق الذي يملأ قلبه، وبهذا يكشف عمَّا يختلج في نفسه من لوعة امتدت حتى الأعماق على فقدان عزيزاً، فهو بذلك يخبرنا أن الشخص الذي ينعيه ويبكيه ليس كباقي البشر، وانما هو من أهل البيت ومن خيرة الخلق مكرمة الذي يعجز الناس عن ذكر مناقبه فقد كان تكراره تأكيداً على حزنه الشديد على موت يحيى ابن رسول الله.

وفي نص آخر يجأر شاعرنا قائلاً:

كيف العزاء عن الشبا
ب، وغصنه الغض النضير؟
كيف العزاء عن الشبا
ب، وعيشه العيش الغرير؟
بان الشباب، وكان لي
نعم المجاور والعشير
بان الشباب، فلا يد
نحوي ولا عين تشير [٩٦]

ان الشاعر يهيمن عليه الاحساس بالألم بسبب الفقد بعد أن ولى الشباب وداهمه الشيب الذي يمثل فاجعة حريّة بالندب، فالشباب - الذي اقترن بالمزايا العديدة- أثير لدى الشاعر، ومن هنا كرر دال (الشباب) في هذه الأبيات الاربعة أربع مرات موحياً بكونه موضع الاهتمام ومركز التصوير، كما كرر دال (عيش) المتواشج بالشباب مرتين بالشطر الثاني من البيت الثاني، وعمد ابن الرومي الى تكرار جملة (كيف العزاء عن الشباب) في الشطر الأول من البيتين الأول والثاني، وتكرار جملة (بان الشباب) في

الشطر الأول من البيتين الثالث والرابع، علاوة على ما سلف فقد تجلى تكرار حرف النفي (لا) مرتين في البيت الأخير مما يبرهن على فداحة الخطب وعظم الخسارة، ولا ريب في أن تقنية التكرار قد أفادت النص معنوياً عبر الرمز والايحاء، كما أثرته إيقاعياً عبر تحقيق الانسجام الصوتي.

ومما يبدو في الاتساق الصوتي عبر تكرار الحروف في ابن الرومي قوله:

جشمت عناء لا عناء وراءه

فدع عنك ما أعيا ولا تجشم الجشم[٩٧]

فعلاوة على رد العجز على الصدر وتكرار كلمة (عناء) نجد تكرار حرف الالف سبع مرات : (عناء، لا ، عناء، وراءه، ما ، اعيا، لا) ولا ريب في أن توظيف المد بالالف يتسق تماماً مع الحالة النفسية المراد التعبير عنها، فالالف حرف متسم بطوله البيّن، وتأسيساً على ذلك فإنّه مناسب لما يصدر من المتألم -الذي اعتراه القنوط والأسى- من توجع ونحيب.

ومن تجليات تكرار الحروف في هذا البيت أيضاً تكرار حرف العين في قوله: (عناء، عناء، فدع، عنك، أعيا) أي انه كرره خمس مرات ، وثمّة حرف آخر كرره ثلاث مرات، وهو حرف الشين عبر قوله: (جمشت، تجشم، الجشم).

ولعلنا -في ضوء ما سبق- ندرك قيمة موسيقى النسيج الداخلي في شعر ابن الرومي.

الخاتمة

١-ان شعر ابن الرومي وضّح لنا مسببات الألم الذي عانى منه الشاعر، فيمكن ان نقسمها الى اسباب داخلية تمثلت فقد اولاده ووالدته ومن ثم بسبب فقد امواله وبستانه وشبابه، والخارجية بسبب وضع المجتمع وبطش الغزاة وتخريب البلاد.

٢-اما اليأس فكان أول اسبابه هو الألم الذي ذكرنا اسبابه آنفاً عمّق شعوره باليأس من الحياة فقد الأحبة وغدر الاصحاب و خيانة الصحة وغدر الحياة له بشكل عام حيث جردته من كل شيء وهذا هو أساس احساسه باليأس.

٣-واستعمل الاساليب البلاغية في التعبير عن الألم واليأس الذي يشعر به من خلال التشبيه الذي جاء في مقدمة هذه الاساليب من حيث الكثرة ، والاستعارة والكناية تأتي بعده، حيث وصّلت عمق احساسه وما يعتمل في نفسه ، أما الموسيقى الشعرية فقد كشفت من خلال استعماله التكرار الذي اعتمده في مقدمات قصائده، مما يشد الذهن في عمق التأثير الذي دفعهُ لتكرار عبارات معينة في مقدمات قصائده.

الهوامش:

١- ينظر: مروج الذهب ١٨٢/٤، تاريخ بغداد ٢٣/١٢-٢٦ ، النجوم الزاهرة ٩٦/٣.

٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ط ٤، ١٩٧٤م، ط٥، ١٩٨١م، ٢٣٨/٢.

٣- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، الامام ابو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق علي البجاوي، دار النهضة، مصر، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١٥٤ وما بعدها بتصرف

٤- الوساطة بين المتنبي وخصومه، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني ٥٤/١، تحقيق وشرح محمد ابو الفضل ابراهيم ، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

٥- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، القاهرة ١٣٤٦هـ ، ٤١٣/٢

٦- مروج الذهب ٢/ ٤١٣

٧- ديوان ابن الرومي، شرح احمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م، ٦/ ٢٣٧٧-٢٣٧٨

٨- الكامل في التاريخ ، المبرد، ط بولاق ١٢٧٤ هـ ، ٧/ ١٨٣

٩- اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان رشيد التميمي، دار المسيرة، بيروت ، ص ٤٩

١٠- ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٢م، ص٢٦

١١- ديوان ابن الرومي، ١/ ٧١

١٢- ديوان ابن الرومي ٦/ ٢٤١

١٣- ديوان ابن الرومي ١/ ٢٥٧

١٤- ديوان ابن الرومي ٦٦٧/٢

١٥- ديوان ابن الرومي ١/ ٥٦-٥٧

١٦- ديوان ابن الرومي ٦/ ٢٤٢٥

١٧- ديوان ابن الرومي ، ٦/ ٢٢٧٢

١٨- معجم مصطلحات الأدب، محمد بوزواوي ، ص١٢١

١٩- صورة الألم النفسي في حديث كعب بن مالك في غزوة تبوك، منيرة مرعي بن راشد الزهراني، مجلة اللغة العربية وآدابها، المجلد السادس، العدد الثاني، سنة ٢٠١٨م، ص٤٩١

٢٠- الرثاء بين أبي تمام والبحتري والمتنبي، أديب فارس، مطبعة الاعتدال ، سوريا، د.ط. ، ١٩٣٢م، ص١٥

٢١- ديوان ابن الرومي، ٨٣/٦

٢٢- الطبيعة في الشعر الجزائري الحديث ، سليم كرام، احمد سحنون انموذجاً، ص ٨٧

٢٣- الجامع في تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري، ص٣١٧

٢٤- ديوان ابن الرومي ، ١٤٥/٢

٢٥- اعلام في العصر العباسي، حسين الحاج حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، ط١، ١٩٧٥م ، ص٢٧٩.

٢٦- ديوان ابن الرومي ، ٢/ ١٤٥-١٤٦

٢٧- رثاء الأبناء في الشعر العربي، محمد عبد القادر حسن غنيم، اطروحة دكتوراه، ادب عربي، كلية الدراسات الشرقية، جامعة البنجان، بكستان ، ص٦٥.

٢٨- الشعر العباسي قضايا وظواهر ، عبد الفتاح نافع، دار المعرفة ، الاسكندرية، ط١، ٢٠٠٨م،

ص١١٩

٢٩- ديوان ابن الرومي ، ٥٧/١

٣٠- ابن الرومي الشاعر المجدد ، ركان الصفدي ، ص٩٥

٣١- ديوان ابن الرومي ، ٦/ ٦٤

٣٢- ابن الرومي سنه ونفسيته من خلال شعره، ايليا سليم الحاوي، ص١٢٣

٣٣- الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف ، القاهرة ، ط٤، ١١١٩هـ ، ص٥

٣٤- ديوان ابن الرومي، ٣/ ٢٤-٢٦

٣٥- رثاء الشباب عند ابن الرومي، عبير عبد العزيز محمد السهلاوي ، مجلة الذاكرة ، مجلد ٨ ، عدد ١، ٢٠٢٠م، ص٢١٨

٣٦- ديوان ابن الرومي ، ٣٨٨/١

٣٧- رحلة الشعر من الأموية الى العباسية، مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ، ط١، ١٩٩٧ م، ص٤٩٩

٣٨- ديوان ابن الرومي، ٥/٣

٣٩- الرثاء ، ص٤٧

٤٠- ديوان ابن الرومي، ١٣١/٦

٤١- ديوان ابن الرومي، ٢٣/١

٤٢- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي ابو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الافريقي (ت٧١١هـ) دار صادر ، بيروت ، ط٢، ١٤١٤هـ ، ٦/ ٢٥٩ (مادة يئس)

٤٣- معجم علم النفس والتحليل النفسي، فرح عبد القادر طه وآخرون، دار النهضة العربية ، بيروت، ط١، د.ت. ، ص ٤٨٧

٤٤- الشعر العباسي قضايا وظواهر ، عبد الفاتح نافع، دار جرير ، عمان ، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٢٢

٤٥- ديوان ابن الرومي ، ٢١٤/٢

٤٦- ديوان ابن الرومي، ١/ ٣١٩

٤٧- التفسير النفسي للادب ، عز الدين اسماعيل ، مكتبة غريب ، القاهرة ط٤، د.ت. ، ص ٥

٤٨- ديوان ابن الرومي، ٥٧٤/٢

٤٩- ديوان ابن الرومي، ٤/ ١٥٨٧

٥٠- ديوان ابن الرومي ، ٢/ ٥٨٦

٥١- ديوان ابن الرومي، ٢٣٣٩/٦

٥٢- ديوان ابن الرومي، ٥٠٥/٢

٥٣- ديوان ابن الرومي ، ١٩٦٤/٥

٥٤- أمالي المرتضى : (غرر الفوائد ودرر القلائد) ، الشريف المرتضى ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار الفكر العربي ، ١٩٩٨، ٦٠٧/٢

٥٥- ابن الرومي في الصورة والوجود ، د. علي شلق ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان، ط١ ، ١٩٨٢م، ص٢٨٢

٥٦- ديوان ابن الرومي ، ٢/ ٥٨٥

٥٧- ديوان ابن الرومي، ١/ ٢١٤

٥٨- ديوان ابن الرومي، ٢٤٨٦/٦

٥٩- ديولن ابن الرومي ، ٢٠٧٢/٥

٦٠- ديوان ابن الرومي ، ٦٦٧/٢

٦١- ديوان ابن الرومي ، ١٤٠/١

٦٢- ديوان ابن الرومي ، ١٤٠/١

٦٣- ديوان ابن الرومي ، ٣٦٠/١

٦٤- ديوان ابن الرومي ، ١٦٢٨/٤

٦٥- ديوان ابن الرومي، ١٤٢١/٤

٦٦- ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، جمع وتحقيق: محمد يوسف نجم ، دار الثقافة، بيروت ، لبنان، ١٩٦٢م، ص٦٣

٦٧- ديوان ابن الرومي، ٦٦١/٢

٦٨- ديوان ابي نواس، حققه وضبطه وشرحه: احمد عبد المجيد الغزالي، مطبعة مصر، القاهرة

، ١٩٥٣م، ص٦٢١
٦٩- ديوان ابن الرومي، ١٧٠٠/٤
٧٠- ديوان ابن الرومي، ١٣٠/١
٧١- ديوان ابن الرومي، ١١٩/١
٧٢- ديوان ابن الرومي ، ٣٧٥/١
٧٣- ديوان ابن الرومي ، ٩٥٤/٣
٧٤- ديوان ابن الرومي، ٧٠٧/٢
٧٥- ديوان ابن الرومي ، ٣/ ١٢٢٨
٧٦-ديوان ابن الرومي ، ٥٨٦/٢
٧٧- ينظر : ثقافة الناقد الأدبي، د. محمد النويهي، ص١٥٧
٧٨- ينظر: من حديث الشعر والنثر ، د. طه حسين، دار المعارف ، القاهرة ، ط١٠، ١٩٦٩م ،ص١٣١
٧٩- ينظر: ابن الرومي حياته من شعره ، عباس محمود العقاد ، ص٢٨٢
٨٠- ديوان ابن الرومي ، ١٥٧١/٤
٨١- ديوان ابن الرومي ، ١/ ٢٥٠
٨٢- ديوان ابن الرومي، ٢٣١١/٦
٨٣- ديوان ابن الرومي ، ٤/ ١٤٧٣
٨٤- ديوان ابن الرومي، ١٤٧٣/٤
٨٥- ديوان ابن الرومي ، ٤/ ١٤٧٣
٨٦- ديوان ابن الرومي ، ٢/ ٦٤٧
٨٧- ديوان ابن الرومي ، ٤٩٤/٢
٨٨- ديوان ابن الرومي، ١/ ٢٦٦
٨٩- ديوان ابن الرومي، ٦٥/١
٩٠- ديوان ابن الرومي ، ١٥٧/٢
٩١- ديوان ابن الرومي ، ٥٧/١
٩٢- ديوان ابن الرومي، ١٤٢/٢
٩٣- ديوان ابن الرومي، ٢١٤/١
٩٤- ديوان ابن الرومي ، ٦/ ٢٣١١
٩٥- ديوان ابن الرومي ، ٢١٩/٣
٩٦- ديوان ابن الرومي ، ٣/ ٨٩٧
٩٧- ديوان ابن الرومي، ٦/ ٢٣٠٣

المصادر والمراجع

١-العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ط ٤، ١٩٧٤م، ط٥، ١٩٨١م
٢-الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، الامام ابو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق علي البجاوي، دار النهضة، مصر، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١٥٤
٣-الوساطة بين المتنبي وخصومه، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني ٥٤/١، تحقيق وشرح محمد ابو الفضل ابراهيم ، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه
٤-مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي، القاهرة ١٣٤٦هـ
٥-ديوان ابن الرومي، شرح احمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط٣، ٢٠٠٢م،
٦-الكامل في التاريخ ، المبرد، ط بولاق ١٢٧٤ هـ
٧-اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان رشيد التميمي، دار المسيرة، بيروت ،
٨-ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٢م
٩-صورة الألم النفسي في حديث كعب بن مالك في غزوة تبوك، منيرة مرعي بن راشد الزهراني، مجلة اللغة العربية وآدابها، المجلد السادس،

العـدد الثـاني، سـنة ٢٠١٨م
١٠-الرثـاء بـين أبي تمـام والبحـتري والمتنبـي، أديـب فـارس، مطبعـة الاعتـدال ، سـوريا، د.ط. ، ١٩٣٢م
١١-الطبيعـة في الشـعر الجزائـري الحديـث ، سـليم كـرام، احمـد سـحنون انموذجـاً
١٢-اعـلام في العـصر العبـاسي، حسـين الحـاج حسـن، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنـشر والتوزيـع، بـيروت ، لبنـان، ط١، ١٩٧٥م
١٣-رثـاء الأبنـاء في الشـعر العـربي، محمـد عبـد القـادر حسـن غنيـم، اطروحـة دكتـوراه، ادب عـربي، كليـة الدراسـات الشرقيـة، جامعـة البنجـان، بكسـتان
١٤-الشـعر العبـاسي قضايـا وظواهـر ، عبـد الفتـاح نافـع، دار المعرفـة ، الاسـكندرية، ط١، ٢٠٠٨م
١٥-الرثـاء، شـوقي ضيـف، دار المعـارف ، القاهـرة ، ط٤، ١١١٩هـ
١٦-رثـاء الشـباب عنـد ابـن الرومـي، عبـير عبـد العزيـز محمـد السـهلاوي ، مجلـة الذاكـرة ، مجلـد ٨ ، عـدد ١، ٢٠٢٠م
١٧-رحلـة الشـعر مـن الأمويـة الى العباسـية، مصطفـى الشـكعة، الـدار المصريـة اللبنانيـة، القاهـرة ، ط١، ١٩٩٧ م
١٨-لسـان العـرب ، محمـد بـن مكـرم بـن عـلي ابـو الفضـل، جـمال الديـن بـن منظـور الأنصـاري الافريقـي (ت٧١١هـ) دار صـادر ، بـيروت ، ط٢، ١٤١٤هـ
١٩-معجـم علـم النفـس والتحليـل النفـسي، فـرح عبـد القـادر طـه وآخـرون، دار النهضـة العربيـة ، بـيروت، ط١، د.ت
٢٠-الشـعر العبـاسي قضايـا وظواهـر ، عبـد الفاتـح نافـع، دار جريـر ، عـمان ، ط١، ٢٠٠٨م،
٢١-أمـالي المرتـضى : (غـرر الفوائـد ودرر القلائـد) ، الشريـف المرتـضى ، تحقيـق : محمـد ابـو الفضـل ابراهيـم ، دار الفكـر العـربي ، ١٩٩٨،
٢٢-التفسـير النفـسي لـلادب ، عـز الديـن اسـماعيل ، مكتبـة غريـب ، القاهـرة ط٤، د.ت.
٢٣-ابـن الرومـي في الصـورة والوجـود ، د. عـلي شـلق ، المؤسسـة الجامعيـة للدراسـات والنـشر والتوزيـع ، بـيروت ، لبنـان، ط١ ، ١٩٨٢م
٢٤-ديـوان دعبـل بـن عـلي الخزاعـي ، جمـع وتحقيـق: محمـد يوسـف نجـم ، دار الثقافـة، بـيروت ، لبنـان، ١٩٦٢م
٢٥-ديـوان ابي نـواس، حققـه وضبطـه وشرحـه: احمـد عبـد المجيـد الغـزالي، مطبعـة مـصر، القاهرة ، ١٩٥٣م
٢٦-مـن حديـث الشـعر والنـثر ، د. طـه حسـين، دار المعـارف ، القاهـرة ، ط١٠، ١٩٦٩م